عاداتنا المستنكرة

من قبل نحو ٢٣٠٠ سنة قال ارسطوطاليس إن الأخلاق هى العادات . وعلى الرغم من الزمن الطويل الذى يفصل بيننا وبين هذا الفيلسوف لا يزال هذا التعريف قائما . فأخلاقنا هى الاستجابات المختلفة التى نستجيب بها لحوادث الوسط الذى نعيش فيه . بل الآراء والميول والأهواء إنما هى أيضا عادات فى طور الكون سرعان ما تظهر وتعود أخلاقا واضحة عند ما تحين المناسبة وتتاح الفرصة .

ويجب لذلك أن نعرف أن لنا نحن المصريين من الأخلاق الحسنة أو السيئة بمقدار ما لنا من عادات حسنة أو سيئة . ولا تخلو أمة من عادات مستهجنة تفشو فى بعض الأوساط أو تتصل ببعض التقاليد . ولكن الأمة الحية التى تنبه ضميرها لمعنى الرقى ومغزى الحضارة يجب ألا تنى عن محاربة السيء من عاداتها وتشجيع الحسن منها . ولذلك يحسن بنا من وقت لآخر أن نشير إلى عاداتنا السيئة وننبه الأذهان إلى الأضرار التى تعود منها .

ومما يجب أن نلاحظه أن معظم عاداتنا المستهجنة إنما يمارسه أعضاء الجنس اللطيف فالمرأة هى التى تتعلق بهذه العادات وهى التى تجعل جنازاتنا مهازل . وهى التى تؤمن بالسحر والشعوذة .

وهى التى تمارس الزار . وهى التى تستشفى بالأضرحة والتمائم وغير ذلك مما لا يعرفه الرجال أو لا تعرفه غير أقلية صغيرة منهم . وهنا يجدر بنا أن نتساءل : أليست هناك علاقة بين تأخر التعليم بين نسائنا وبين تعلقهن بهذه العادات المستهجنة ؟

وإذا صحت هذه العلاقة فإننا يجب أن ننتظر من رجال التربية والتعليم أن يجعلوا لهذه العادات المكانة التى تستحق من الزجر والنهى، حتى تنشأ فتيات الجيل الجديد وهن ينفرن من هذه العادات التى تزرى بكرامتنا وتؤذى صحتنا وتجعل مجتمعنا موضوعا للسخرية عند الأجانب .

وربما كان للموت ومايستتبعه من مأتم بالدار أو موكب للجنازة فى الطريق أعظم نصيب من هذه العادات المستهجنة . والمدينة والريف سواء فى هذه العادة . فان لطم الخدود

وصيفها بالنيل وعقد المناحة الصاخبة ، كل هذا قد زال من المدينة أو قل ولكنه لايزال من العادات الفاشية فى الريف . على أن المدينة لايزال لها نصيبها فى الموكب حين نرى الجنازة وهى محمولة على الأعناق وقد سبقها جيش كبير من حملة المباخر والنهاقم والمولوية . كما نرى أحيانا من الخلف نسوة عديدات قد اقتعدن العربات الكارة وهن متجللات بالسواد يغنين بأصوات عالية حول امرأة قد احترفت الحداد والرثاء تعدد صفات المتوفى فى لحن موقع .

وقد أصبح هذا المنظر مألوفا عند السياحين من الأجانب يشترون صوره الفتوغرافية ويحتفظون بها كأنها بعض أخلاقنا الوطنية . وهذا هو الذى يجب أن يحز فى نفوسنا ويستثير فينا هذه الكرامة الوطنية المجروحة . والسائح الذى يجول فى شوارع القاهرة لايمكننا — مهما نفعل — أن نمنعه من خطف هذه الصور المهينة ينشرها على العالم المتمدن . ولذلك ينبغى على المربين وعلى الموظفين المختصين وعلى كل فرد من الجمهور أن يكون ناصحا متنصحا فى مثل هذه الظروف . وأن يرد إلى الموت هيبته ووقاره . فإذا كان لابد من موكب للجنازة فيجب أن يسير فى صمت وخشوع . لأنه عظة ناطقة للأحياء بمصيرهم القريب أو البعيد . والعظة لاتستقبل فى مثل هذا الهرج والمرج الذى نراه حول جنازاتنا . وصحيح إن الحكومة تستطيع أن تسن القوانين الرادعة ولكن القوانين تحتاج فى كل وقت إلى تأييد من الرأى العام ولذلك تجب تربية أفراد الجمهور على استهجان هذه العادات .

ويمكن أن يعد الموت فى مصر "عقدة" اجتماعية لأنه يجمع حوله طائفة من العقائد والعادات التى توارثناها منذ مئات السنين . وهى جميعها فى حاجة إلى التنقيح أو إلى الالغاء فاننا إذا تركنا مناحة الدار وموكب الجنازة وجدنا أن للجبانات عادات أخرى سيئة ، لعل أبرزها هو المبيت بين القبور . فان ذوى المتوفى يعمدون فى مواسم معينة إلى الجبانات وهناك يقضون ليلة أو ليالى . ومثل هذه المواسم هى على الدوام فرصة لارتكاب الجرائم حيث تقع السرقات والاعتداءات . بل إن هذه العادات تحمل ذوى المتوفى على أن يشيدوا فوق القبر بناء يكاد يكون دارا يقيمون فيها فى هذه المواسم . وهذا البناء هو تكليف كثيرا مايكون باهظا لبعض الأسر التى تساق إليه بالمقتضيات الاجتماعية . فلو نصحنا وانتصحنا وامتنعنا عن إقامة هذه الأبنية واقتصرنا على القبر وكففنا عن المبيت بالجبانات لكسبنا الكسب العظيم فى أخلاقنا وأموالنا .

ومن العادات المستهجنة التى لا تجدى فيها غير النصيحة عادة الزار ، الذى تقام حفلاته خفية فى البيوت . وهو مزيج من السحر والشعوذة والهستريا والنورستينيا تجتمع فيه المرأة

أو الفتاة السليمة التي يبعثها التطلع أو التهتك، والمرأة المريضة التي تحتاج الى عناية الطبيب . وتشرف عليه جماعة من النسوة يدعين لهذه الحفلات للاستغلال والكسب . والجهل هنا يستغل الى أقصاه . فان الشعوذة تعود طبا والاسراف بل السفه فى انفاق المال — وهو عادة مال الفقير — يعود حكمة وبرا . والأمراض النفسية التي يدعى علاجها هؤلاء المشعوذات قد أصبحت علما له نظرياته ومعارفه وتجاربه وله خبراؤه وأطباؤه . وكلنا يسلم الآن بأن العقل الباطن قد يطغى ويفكك الشخصية أو يفتتها أو يحيلها شيئا آخر لم تكنه من قبل . ومثل هذه الحال تحتاج الى العلاج الفنى لا الى هذه الشعوذة التي تمارس بين دق الطبل واحراق البخور واشعال الشموع ورقص الراقصات .

ومن عاداتنا المستهجنة هذا الاستشفاء بالأضرحة وتعليق التمائم . فان للأمراض أسبابا يعرفها الطبيب . وهو اذا لم ينجح فى علاجها فلن ينجح غيره. وصحيح إن لقوة الاستهواء أثرها فى الشفاء . ولكن مثل هذا الأثر يمكن أن نجنيه من كلمة الطبيب دون الالتجاء الى الأضرحة أو تعليق التمائم . وكما لا يخفى على أحد أن زيادة المرضى للأضرحة وتمسحهم بالجدار أو الأساطين واختلافهم اليها مع اختلاف أمراضهم قد يؤدى الى نقل العدوى من المريض الى السليم أو من المريض الى مريض آخر بمرض آخر .

ومعظم هذه العادات المستهجنة يرجع إلى النساء . وقد علمنا ذلك بأن الجهل لايزال فاشيا بين نسائنا أكثر من فشوه بين رجالنا . ولذلك لايسعنا إلا أن نعين العلاج أيضا فى التعليم . فيجب على رب الأسرة أن يحارب هذه العادات فى أبنائه وبناته بتعليمهم ، وأن يذكر أن تعليم البنت لايقل قيمة عن تعليم الابن . وإذا نجحنا فى تعميم التعليم بين فتيات الجيل الجديد فان هذه العادات التي تبعث الخجل فى نفوسنا تزول أو لاتعود لها غير الأهمية التاريخية فى بعض الأطراف النائية من قرى الريف .

على أن هناك عادات أخرى مستهجنة لانستطيع إن نقول إن المرأة هى العلة فى تفشيها أو على الأقل ليست هى العلة الوحيدة . فنحن فى ضيافتنا ننفق كثيرا ونسرف فى توفير الطعام كما وكيفا كأن البيت قد استحال إلى مطعم . مع أن الضيافة مسامرة ومؤانسة ومباسطة قبل أن تكون مؤاكلة . وهذا البذخ الذى نبديه فى ضيافتنا كثيرا ما يحملنا على أن نباعد بين

فترات الدعوات فلا تتراور إلا قليلا لأننا لا نطيق تكاليف المائدة المطهمة والألوان العديدة. ولو أننا عمدنا إلى البساطة والاقتصاد فى التكاليف لزادت زياراتنا فازددنا فى التعارف وتوثق الصلات .

ومثل هذا يقال أيضا عن الاحتفال بالزواج، فإن التغالى فى المهور وتكليف الأسرة شراء الأكداس من الأثاث والفراش والملابس يبهظها وقد يؤدى بها إلى الوقوع فى الديون المرهقة ، كما أن ليلة العرس — وأحيانا ليالى العرس — قد تتجاوز تكاليفها حدود الطاقة عند الفريقين من ذوى العروسين . وهذا الحال كثيرا ما يؤدى حسابها الى الخوف من الزواج أو تأخير وقوعه وتأجيله الى المستقبل البعيد .

إن لنا عادات تستحق المكافحة إما بالغائها واما بتنقيحها . وهى لا تضرنا فى صحتنا وحدنا بل تؤذينا فى أموالنا كما تجعلنا أضحوكة فى نظر الأجانب . فيجب أن نتبادل النصيحة فى شأنها ونستصلحها حتى يغدو مجتمعنا راقيا يستدعى الاعجاب . والأخلاق هى — كما قال أرسطو طاليس — لا تزيد على أن تكون عادات . فلكى تسمو أخلاقنا يجب أن نصلح عاداتنا .